

الفصل الثاني

السواء واللاسواء

مفهوم الصحة أو السواء في الأمراض النفسية قد يختلف عما هو في ميدان الطب العام. ففي الطب الداخلي (الجسدي) يكفي الطبيب أن يخلص مريضه من الاضطراب العضوي الذي دفعه للعلاج لكي يحكم بأنه قد شفي وانه سليم ومعافى. أما في حالة الأمراض النفسية فانه لا يكفي القول بان المريض تخلص من قلقه أو حالة الكآبة لديه للحكم على انه أصبح سليماً. فالصحة النفسية لا تتوقف عند عتبة التخلص من الأعراض المرضية بل هي تتطلب فضلاً عن ذلك أن يتسم سلوك المريض بخصائص معينة كأن يتصف بالإيجابية والفاعلية والرضا عن النفس وغير ذلك من الصفات الدالة على الصحة والاتزان، أي أن شخصيته قد اكتسبت خصائص وصفات لم تكن موجودة من قبل أو أنها كانت متخفية خلف المرض النفسي ثم ظهرت من جديد وبفاعلية جديدة.

ويقسم السلوك البشري إلى قسمين: سلوك سوي و سلوك شاذ. وقبل أن نتحدث عن كل منهما لابد من الإجابة عن السؤال الآتي: ما هو السلوك؟ في الإجابة عن هذا السؤال نقول: السلوك هو التصرف الذي يقوم به الفرد في ظروف محيطه (البيئية والاجتماعية)، في شكلها العام، انطلاقاً من حالة نفسية داخلية جعلت الإنسان يتصرف ذلك التصرف، فالإنسان الذي يراقب تصرفاته وسلوكه بشكل عام ويحاول أن يظهر نفسه من كل مظاهر الأمراض النفسية كالحقد والكره والبخل والاستغلال والظلم وأن يسعى لخدمة مجتمعه وأن يستثمر طاقاته بالشكل الأمثل وأن يكون لديه اندفاع إيجابي في مجال عمله وأن يكون على مستوى من الطموح يتناسب وقابلياته وقدراته يمكن أن نسميه الشخص السوي أي ذو شخصية سوية.

أما الشخص اللاسوي فهو الذي يختلف سلوكه عن الشخص السوي في تفكيره ومشاعره وعلاقاته مع الآخرين ويكون غير متوافق ذاتياً وانفعالياً واجتماعياً بشكل تسيطر عليه نزعاته النفسية وغرائزه الحيوانية ويكون عرضة للأمراض النفسية والعقلية والتي تنعكس بشكل واضح في سلوكه وأخلاقه مع الآخرين من أبناء مجتمعه، وبهذا يكون من السهل علينا أن نحدد من هو المريض نفسياً ولكن من الصعب أن نحدد من هو السوي وهذه الصعوبة منشؤها يكمن في طبيعة الإنسان نفسه إذ أنه كائن معقد السلوك ومتغير المزاج في كل لحظة إذ أن هناك الكثير من أوجه الحياة النفسية يصعب تحسسها عن طريق ملاحظة سلوك الفرد وبالتالي يصعب قياسها مثل أوجه الحياة العاطفية والانفعالية. فقد لا تنعكس في مظاهر سلوكه كما يراه الآخرون، لذا فمن غير الممكن الاستدلال عليها إلا عن طريق الفرد نفسه.

واختلفت الآراء ووجهات النظر فيما يتعلق بتحديد "السواء" و "اللاسواء" ، فما ينظر إليه على أنه "سوي" في مجتمع قد ينظر إليه على أنه "لا سوي" في مجتمع آخر. بل إنه داخل الثقافة الواحدة تتعدد الثقافات الفرعية Subcultures كما هو الحال في مجتمعنا العربي. فيرى (فرويد) أن الشخص السوي هو القادر على العمل والحب بمفهومه الواسع، أي إمكانية التمتع بالحياة.

ويرى (سولفان) أن الشخصية السوية هي تلك الشخصية ذات العلاقات الجوارية الواقعية والتي تتعامل مع الناس كما هم الآن.

ويرى (ماسلو) أن السواء هو تحقيق الذات.

ويطلق في نهاية الأمر على هذه الآراء ووجهات النظر المتعلقة بالسواء و اللاسواء اسم (معايير الشخصية السوية واللاسوية) وأهم هذه المعايير:

١. المعيار الإحصائي: فكرة المعيار الإحصائي مستمدة من خصائص المنحنى الإعتدالي الانموزجي والذي يقوم على أساس توزيع درجات عينة ممثلة للمجتمع على اختبار من اختبارات الذكاء أو القدرات أو بعض الخصائص الأخرى، والتوزيع الإعتدالي الانموزجي من أهم خواصه الإحصائية أنه متماثل أي أن نصفه الأيمن ينطبق على نصفه الأيسر وأن متوسطه يساوي صفراً.

٢. المعيار الثقافي: تقوم في كل ثقافة من الثقافات مجموعة من التقاليد والعادات والقيم والمعايير السائدة التي يتم عن طريقها تقييم سلوك الأفراد، أي أن هذه المجموعة من القيم والعادات تُعد "قياساً" أقامته الجماعة يقاس عليه سلوك كل فرد ليحاسب إذا خرج عليها ويكافأ إذا دخل سلوكه في نطاق ما هو مرغوب من تصرفات أقرتها الثقافة التي يعيش فيها.

٣. المعيار المرضي أو الباثولوجي: يُعد الشخص شاذاً في ضوء هذا المعيار إذا وجدت لديه أعراض وشكاوي مرضية كالقلق والاكتئاب والتوتر والصراعات النفسية المختلفة ويُعد الشخص سويّاً إذا خلا من هذه الأعراض، إذ أن الشخص السوي هو شخص بلا أعراض مرضية، إلا أن الخلو من الأعراض لا نجده لدى أحد، فمن الصعوبة أن نجد شخصاً خالياً من الأعراض المرضية، ومع هذا فإنه عندما يغلب وجود تلك الأعراض المرضية في شخص ما فإنه يُعد غير سوي.

ويوجد نقد لهذا المعيار في اختلاف الدرجة التي ينبغي أن تكون عليها تلك الأعراض والإضطرابات المرضية حتى يمكن أن يحكم عليها بأنها مرضية وحتى لا يختلط السواء باللاسواء.

٤. المعيار الانموزجي أو المثالي: هو المعيار الذي يأخذ كل فرد على عاتقه الاحتذاء به ومحاولته باستمرار الاقتراب منه ليجعل سلوكه يتطابق معه. وبناء على هذا المعيار فإننا نطلق

على الشخص بأنه سوي كلما اتفق سلوكه مع المثل الأعلى، ونطلق على الشخص بأنه شاذ كلما كان سلوكه غير متفق وبعيد عن المثل الأعلى.

٥. **المعيار الطبيعي:** يمكن أن نطلق عليه اسم "معيار السلوك الجنسي" لتطابقه واتفاقه مع مضمون هذا المعيار. وعن طريق هذا المعيار يُعد الشخص سويًا لقيامه بالدور المناسب لجنسه، مثل أن يكون الولد الذكر مبادراً والبنت الأنثى خاضعةً، والقيام بالدور الجنسي الغيري heterosexuality أسلوب سوي بالنسبة للحياة الجنسية لدى بني البشر، كما تُعد في نفس الوقت الجنسية المثلية Homosexuality أي ممارسة الجنس مع فرد من نفس النوع أمراً شاذاً.

٦. **المعيار الذاتي:** ويعتمد هذا المعيار على أن الفرد يجعل من ذاته إطاراً مرجعياً Frame of reference يتخذه كأساس للحكم على السلوك بأنه سوي أو غير سوي والإطار المرجعي، كما أظهرت التجارب الأولى في تاريخ علم النفس مع أش Solomon Asch وغيره من علماء النفس على أنه ما هو إلا اجتماع آراء الجماعة ذاتها أي أنه يتضمن الإطار الاجتماعي الممثل لعمليات التنشئة الاجتماعية. وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد أن اعتماد الفرد على ذاته وعلى الإطار المرجعي في الحكم على السلوك يخضع للأحكام السابقة لدى الفرد ولدفاعات الأنا.